جهود الخليفة العباسي المهتدي في التصدي لسيطرة الترك ٢٥٥هـ - ٢٥٦هـ

الدكتور خليل شاكر حسين
جامعة الموصل / كلية التربية

توطئة :

بدأت بوادر ظهور الجند الترك في الجيش العباسي منذ العصر العباسي الأول . فيذكر بعض المؤرخين أن بدايات استخدامهم كعنصر محارب في الجيش العباسي كانت منذ عهد المنصور ومن بعده من خلفاء بني العباس . لقد لجأ الخلفاء العباسيون الاوائل إلى استخدام العناصر الاجنبية في الجيش امام تطور المجتمع العربي وذلك لظهور مجتمعات المدن التي تضاءلت فيها الروح العسكرية . وتجمع المصادر التأريخية ان المعتصم

هو أول خليفة عباسي قد استعمل الاتراك بشكل واسع حتى ضاقت بهم العاصمة بغداد ونفر منهم أهلها واستاءوا من تصرفاتهم وبلغ الوضع سوءاً إلى حدّ المصادمات مما اضطر الخليفة العباسي إلى ترك مدينة بغداد واختيار موضع جديد شمالها حيث ابتنى له عاصمةً جديدة اسماها بسامراء (١) . وقد اصبحت سامراء معسكراً لاجناده الاتراك ومركز الثقل السياسي الجديد للدولة العباسية . ان استخدام المعتصم للجند الاتراك بتلك الدرجة الكبيرة يعد منعطفاً خطيراً في حياة الخلافة العباسية ذلك لأنهم بدأوا يتغلغلون في مراكز الجيش الحساسة والعليا وبرز منهم القادة الكبار الذين شرعوا يؤثرون في سياسة الدولة العليا . وبالفعل فقد ذكر لنا مؤرخونا الاوائل اسماءً عديدة لقادة اتراك قد لعبوا ادواراً خطيرة في امور الدولة السياسية والعسكرية في عهد المعتصم ثم في زمن خلفائه . وبلغ هؤلاء القواد شأناً كبيراً بتسنمهم مناصباً ادارية لاقاليم الدولة (٢) . بيد أن عصر المتوكل يعتبر مسرح الصدام الحقيقي بين مؤسسة الخلافة وشرعيتها ومحاولات القادة الاتراك في السيطرة على مقاليد الأمور .

المبحث الأول : محاولات المتوكل في التخلص من هيمنة الاتراك :

تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ بدعمٍ من لدن القادة الاتراك لذا فهم يعتقدون بفضلهم عليه بإيصاله إلى سدة الحكم ، خاصة اذا عرفنا ان تدخلهم في مسألة تنصيب الخليفة العباسي كان مسابقة خطيرة لها من النتائج السيئة على هيبة الخلافة العباسية وشرعيتها . وقد كان الصراع شديداً بين الادارة العباسية التي يمثلها الوزير ابن الزيات ومؤسسة الجيش وربح الجيش المعركة وسقط ابن الزيات مما ادى ذلك إلى ازدياد نفوذ القادة الاتراك (٣) . ولكي يخلق المتوكل قاعدة شعبية له اتبع سياسة دينية تختلف عن اسلافة من خلفاء بني العباس . وحاول جهده ان يسترضي كبار القادة الأتراك مثل ايتاخ ويف الصغير والكبير ووصيف حيث تم تعينهم في مناصب ادارية كبيرة . وبهذا فقد حصل القادة الأتراك على امتيازات كبيرة وبدأوا يشكلون قوة لايستهان بها للضغط على ارادة الخليفة . والجدير بالقول ان المتوكل اصبح يتحسس بوطأتهم عليه وقرر ان يحرر نفسه من نفوذهم .

لذا فقد اتخذ المتوكل دمشق عاصمة جديدة للدولة العباسية وفعلاً انتقل اليها وبدأ البناء فيها ونقل اليها الدواوين . وقد فهم القادة الاتراك مايقصده المتوكل فأشاروا عليه الجند مما اضطره ذلك الى تركها والرجوع الى سامراء (٤). ويبدو أن المتوكل لم يأخذ

بعين الاعتبار تجربة عبد الله بن علي والخليفة الامين عندما اعتمد على اهل الشام فلم يفلحا في استمالتهم. ومما تجدر اليه الاشارة ان العلاقة بين الخليفة والقادة الاتراك. اصبح يسودها الحذر بعد خطوة المتوكل في نقل العاصمة وقد جرت محاولة للتخلص منه من قبل ابنه الكبير وابنه موسى وانكشف تدبيرها للمتوكل ولكنه اظهر العفو عنهما مضطراً حتّى لايثير حفيظلة بيته القاده الاتراك ضده .

وعلى الصعيد المالي فأن القادة الاتراك لم يكتفوا بكل الامتيازات التي حصلوا عليها بل انهم استحدثوا ديوان الجند والشاكرية ودبوان الموالي والغلمان لكي يخلقوا لهم قاعدة قوية تساندهم بجانب تعاظم نفوذهم . وقد اثرّت تلك الامتيازات والدواوين الجديدة على خزينة الدولة وواراداتها واصبحت مصروفات المؤسسة العسكرية عبئاً ثقيلاً على الخزينة وتؤدي بها الى الافلاس في بعض الاحايين .

ومن الضروري قوله ان المتوكل كان يفكر جدياً في التخلص من القادة الاتراك لأنهم اصبحوا خطراً على الخلافة والادارة العباسية وقد نجح في التخلص من القائد التركي ايتاخ عند ذهابه الى اداء فريضه الحج اثناء مروره ببغداد (٥). بيد ان القادة الاتراك قد فطنوا لإسلوب الخليفة وباتوا يحذرونه. وبناءً على ذلك فأن الخليفة العباسي قد ابتنى له عاصمة جديدة اطلق عليها اسم «المتوكلية» كخطوةٍ للابتعاد عن هيمنة الاتراك .

وكوّن له حرس خاص واعتمد على العرب والصعاليك غير ان المتوكل وقع بخطأ جسيم بأن قسّم الدولة الى ثلاثة اقسام على غرار مافعله الرشيد (٦) من قبل وبدأ سياسة التفضيل والتمايز بين اولاده مما اثار التحاسد بينهم والتباغض فأستغل القادة الاتراك ذلك. واتفقوا مع ولده المنتصر فقتلوه مع وزيره الفتح بن خاقان سنة ٢٤٧هـ .

المبحث الثاني :

تمزق وحدة الأسرة العباسية الحاكمة :

تعاقب في الحكم خلال هذه الفترة اربعة خلفاء وهم المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي من سنة ٢٤٧ ـ ٢٥٦هـ . فعلى الرغم من جهودهم في اخفاء طابع القوة وبعث الهيبة لمؤسسة الخلافة إلا أنهم جوبهوا بمقاومة القادة الاتراك وفرض ارادتهم ومصالحهم عليهم. وانه لمن المفيد ذكره في هذا المجال هو أن مقتل الخليفة العباسي المتوكل بأتمار من ولده المنتصر مع القادة الاتراك يعد انتكاسه للخلافة العباسية كمؤسسة سياسية وخاتمة سوء

للأسرة العباسية الحاكمة. ولا غرو فأن الخلافة العباسية قد اصيبت بطعنة اضاعت منها تلك الهيبه والجبروت، فأصاب مؤسسة الخلافة الضعف وانعكس ذلك على افراد الاسرة العباسية حيث دبت الفرقة والتنازع بين افراد البيت الواحد. وقد اشتد الأمر سوءً الى درجة التصفية الجدية من أجل ارضاء القادة العسكريين الاتراك ثم لانهاء دور المنافسة والمزاحمة على كرسي الحكم. وبناء على ذلك نرى ان المستعين والمؤيد ثم المعتز يذهبون ضحية من من اجل مصالح ذاتية. وشمل النفي افراداً من البيت العباسي الى البصرة وواسط وسبب ذلك الخشية والخوف المسيطران على نفوس العباسيين يضاف الى ذلك وجود التكتلات والمحاور داخل الاسرة العباسية الحاكمة (٧) وقد وفق القادة الاتراك بأيجاد البغضاء والنفور بين افراد الاسرة العباسية وجعلهم يضربون بعضهم البعض لكي يتم لهم السيطرة على مقاليد الامور وادارة دفتها كما يشتهون.

تعتبر السنوات العشر التي مرت بها الخلافة العباسية من سنة ٢٤٧هـ وحتى ٢٥٦ من اسوأ الفترات في حياة الخلافة العباسية بسبب هيمنة الاتراك على شؤون الخلافة مما حدى ببعض المؤرخين المحدثين الى تسميتها بعصر الفوضى العسكرية والاضطراب السياسي (٨).

جاء المنتصر بعد مقتل ابيه المتوكل الى الحكم واجبر اخويه المعتز والمؤيد على خلع انفسهما ارضاءً لرغبة القادة الاتراك لأنهم يخافون انتقامهما لمقتل ابيهما المتوكل. وقد اغدق العطاء للقادة الاتراك واجنادهم بمنحهم مرتبات عشرة أشهر مقدماً. (٩) ومع ذلك فقد اظهر الندم على مقتل ابيه وبدأت الرغبة في الانتقام من القادة الترك تتحرك في نفسه وكان يلقب الاتراك بقتلة الخلفاء فخافوه على انفسهم ودسوا له السم وقتلوه سنة ٢٤٨هـ بعد ستة اشهر من الحكم (١٠). وتولى الحكم من بعده المستعين الذي لم يستطع ان يغير شيئاً من سيطرة القادة الاتراك امام ثورات الاقاليم في الشام وفارس وشغب الجند في بغداد وسامراء ومطالبتهم بارزاقهم وراح القائد التركي اوتامش ضحية ثورتهم. وقد سادت الاحوال الاقتصادية وارتفعت اسعار المواد الغذائية في سامراء وبغداد وتضاءل وجود العملة مما ادى بالمستعين الى التنازل عن الحكم سنة ٢٥٢هـ والتجأ الى واسط مع اهله لكنه قتل بعد ذلك (١١) وبويع للمعتز بالخلافة وكانت الحالة الاقتصادية سيئة والجند يطالبون برواتبهم ودفعتهم ثورتهم الى قتل القائد التركي وصيف كما قتل من قبله اوتامش وانفسح المجال امام القائد التركي بغا الصغير الشرابي فاصبح المتصرف بالأمور وصاحب الحل والعقد واراد قتل المعتز فأنكشف امره مما دعاه ذلك الى الهرب الى الموصل وتم

القضاء عليه. واستقل احمد بن طولون بمصر وسيطر يعقوب بن الليث الصفار على فارس ازاء هذه الحالة المنذرة بالسوء برز قائد تركي آخر وهو صالح بن وصيف وقبض على كتاب المعتز وعذبهم واخذ اموالهم وضياعهم واجبر المعتز نفسه على الخلع سنة ٢٥٥هـ ومات لظروف غامضة يرجحها مؤرخونا بالقتل بعد ايام قليلة من مجيء المهتدي للخلافة(١٢)

المبحث الثالث:

الحالة السياسية الداخلية بعد تولي المهتدي للحكم :

اولاً : ظروف توليه الخلافة :

تولى المهتدي الخلافة بعد خلع المعتز الذي عجز عن دفع رواتب الجند مما اضطر القادة الاتراك الى خلعه واختيار محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي والذي تمت مبايعته في رجب عام ٢٥٥هـ. والجدير بالذكر ان المهتدي اعترض على اسلوب بيعته واصر على حضور المعتز بن المتوكل الذي اعترف بعجزه عن القيام بمهام الخلافة امام القواد الاتراك والكتاب وافراد البيت العباسي وكتبت بذلك وثيقة تؤكد عجزه . وكان المعتز اول مبايع للمهتدي عن رضى من نفسه. ومما تجدر اليه الملاحظة في هذا الباب هو أن المهتدي اراد بتلك الخطوة ان يجعل من خلافته اكثر شرعية وباءنها تمت بالرضى وليس بالاكراه والغصب ثم انه اراد ان يجعل نفسه بعيداً عن تأثير الاتراك ومساهمتهم في بيعته حتى لا يكون لاصحاب فضل عليه يطوقونه به مستقبلا (١٣)

ثانياً : حصول الفتنة في بغداد :

ان الفترة التي تولى بها المهتدي الحكم كانت عصيبة. اذ ان مؤسسة الخلافة واد ضعفت عن مواجهة الفتن الداخلية والاقطار الخارجية . والحال هذا كان لابد للخلافة من رجل يعيد لها نشاطها ويكون بمستوى المسؤولية . وعليه فأن المهتدي رأى من واجبه تحقيق هذه المهمة الصعبة. وعلى الرغم من انتقال مركز الحكم من بغداد حاضرة الدولة الأولى الى مدينة سامراء فلا زالت تحتفظ بمكانتها ودورها السياسي والاجتماعي والفكري. ولا بد لكل خليفة عباسي ان يأخذ حسابها بعين الاعتبار . وبناء عليه فقد ارسل المهتدي بعد اتمام بيعته في سامراء كتاباً الى نائب عامل بغداد سليمان بن عبد الله بن طاهر يطلب منه اخذ بيعة اهل بغداد له. وكان لوجود ابي احمد بن المتوكل الذي ابعده المعتز الى بغداد المبرر

في اثارة أهل بغداد خاصة عندما طلب سليمان بن عبد الله البيعة منه للخليفة المهتدي باستدعائه الى داره . فتورد مصادرنا التأريخية ان اهل بغداد قد اخذتهم الثورة على ماحدث في سامراء للمعتز واجباره على خلع نفسه واهانته وكانوا لايعلمون بما حدث في سامراء من بيعة المهتدي الا بعد اسبوع من الزمن. لذلك فقد تجمعوا امام دار نائب الوالي واستفسروا منه عما حصل في سامراء. والجدير قوله هنا ان اهل بغداد بخطوتهم تلك قد برهنوا انهم ليسوا بمعزل عن سير الاحداث وان مايجرى في العاصمة العباسية الثانية لازال يهمهم ويقلقهم. واستطاع سليمان بن عبد الله ان يطمأنهم بأنه بانتظار مايصله من اخبار من سامراء وانصرفوا لكي يعاودوا تجمعهم في يوم الجمعة الاتي حيث ذكر اسم المعتز في خطبة الجمعة وهذا يدلل على بقاء هيبة الخلافة في النفوس رغم مشيئة القادة الاتراك واجنادهم وتجمهرت العامة مرة اخرى امام دار سليمان ورفعوا اسم ابي احمد بن المتوكل كمرشح للخلافة والحوا على ان يخرجه سليمان لهم فاظهره لهم ووعدهم خيراً لما يريدون وتلك خطوة ذكية من جانب سليمان لتسكين روع اهل بغداد ولكي يكسب الوقت بدلا من مجابهتهم. وجاءت الاخبار ببيعة المهتدي فسكنت ثائرة اهل بغداد ولعب المال دوره في اسكات الناس بعد ارساله من سامراء. وتمت البيعة للمهتدي في بغداد في اوائل شعبان سنة ٢٥٥هـ وذكر اسمه كخليفة للمسلمين في خطبة الجمعة في شعبان ٢٥٥هـ(١٤) .

ثالثاً : دور الحريم في اثارة المتاعب امام الخلافة :

تمثل ام المعتز الملقبة بقبيحة (١٥) ذلك الصنف من النساء الذي قام بدور مهم في تقرير مصير بعض الخلفاء العباسيين وتصريف امورهم . فكما كان للخيزران وزبيدة في ايام الهادي والرشيد دوراً في شؤون الخلافة فقد أصبح لامهات الخلفاء وزوجاتهم ادواراً لايمكن أغفالها على عظيم أهميتها . يذكر مؤرخونا الاوائل ان الحريم قد بلغن من التأثير على الخلفاء نتيجة للأمتيازات التي حصلن عليها وذلك بأن كون لهن طبقة خاصة مع وصيفاتهن ومواليهن وبعض القواد والكتاب مما شكل ذلك عبئاً مالياً ثقيلاً على خزينة الدولة . لقد مرّ المعتز بوضع مالي صعب للغاية وكان عاجزاً عن سداد مطالب القواد ، الاتراك والجند بدفع ارزاقهم وطالبوه بمبلغ خمسين الف دينار كحد ادنى لاسكات تمرد الجند . وامام هذا الوضع المتأزم طلب المعتز من أمه قبيحة أن تسعفه بالمبلغ المطلوب ولكنها اعتذرت له وتظاهرت بفقرها وانها لاتملك مثل هذا المبلغ . وتؤكد مصادرنا ان ام المعتز كانت غنية جداً بحيث انها كان تمتلك اموالاً ولؤلؤاً وياقوت قدره المؤرخون

بالاف الدنانير.فمن الغريب حقاً ان نراها تفضل خلع ابنها من منصب الخلافة وقتله من ان تنقذه وتنقذ هيبة الخلافة التي بواسطتها قد جمعت هذه الثروة (١٦) والمدهش حتماً انها لم تتمكن من الحفاظ على هذه الثروة فقد أصبحت من نصيب القائد التركي صالح بن وصيف الذي استولى عليها بالقوه . وتركت العراق واقامت بمكة وكانت تدعو على القائد صالح بن وصيف بأنه قد قتل ابنها وهتك سترها واخذ مالها وغربها عن بلدها (١٧) وقد أصاب المهتدي كبد الحقيقة عن انكشاف امر ام المعتز وموقفها الضعيف من استحالة أبنها بقوله : « أما أنا فليس لي أم أحتاج غلة عشرة الاف دينار في كل سنة لجوار يها ، وخدمها المتصلين بها ، ومااريد إلا القوت لنفسي وولدي ومااريد فضلاً الا لاحوتي فان الضائقة قد مستهم » (١٨) .

ان استيلاء القائد صالح بن وصيف على اموال ام المعتز قد فتح باب الفتنة امام الخلافة العباسية في وقت هي بأمس الحاجة لاعادة الأمن والاستقرار وتوكيد هيبتها اشتد أثار عمل صالح بن وصيف بقية القواد الاتراك هذه مما سيجر على الخلافة المشاكل والويلات

المبحث الرابع : تردي الحالة الداخلية للدولة العباسية :

اولاً : التطابق بين القادة الأتراك والادارة العباسية :

واجه الخليفة المهتدي وضعاً مأساوياً داخل الدولة العباسية وحاول جهده ان يصلح هذا الوضع المتردي لكن ثمة تحديات ومصاعب وقفت حائلاً امامه وافشلت برنامجه الاصلاحي فمن جهة ، يقف امام المهتدي تحدي القادة العسكريين الاتراك ومطامعهم ومصالحهم ومن جهة اخرى استفحل خطر الفساد الاداري داخل مؤسسات الدولة ،تمثلا في الكتاب والوزراء والولاة وصنائعهم ان موقف القائد صالح بن وصيف من الكتاب : احمد بن اسرائيل والحسن ابن مخلد وابي نوح لهو دليل ساطع على ذلك الصراع بين الجيش والادارة . لقد قبض صالح بن وصيف على الكتاب وضربهم بالسياط واهانهم امام العامة واستولى على اموالهم والخليفة المهدي لم يحرك ساكناً إلاّ الاعتراض على اسلوب المحاسبة اذ انه لايرتضي العنف والاهانة وعلق على فعل صالح بالكتاب بقوله : « اما ، عقوبة إلا السوط والقتل اما يكفي الحبس ، انا لله وانا اليه راجعون ... » . (١٨) والجدير بالقول أن الصراع كان قديماً بين الجيش والادارة منذ عصر العباسيين الاوائل ولكن ، بشكل مستتر بسبب قوة الخلفاء العباسيين غير ان هذا الصراع اصبح مكشوفاً ابتداءً من عصر المتوكل الذي ذهب الوزير الزيارات ضحيته .

ثانياً : اندلاع اعمال الشغب في بغداد :

لاتفتأ الحالة ان تعود الى الهدوء في عاصمة الدولة القديمة بغداد حتى تندلع مرة أخرى اعمال الشغب فيها ومن قبل الجند الشاكرية والنائبة ومن الصعاليك . وكان دافع التمرد الاساسي هو المطالبة بالارزاق الذي كان المحرك الرئيسي لتمرد الجند سواء في سامراء او بغداد وغالباً مايكون ورقة للضغط على الخليفة العباسي بيد القادة الاتراك . فمما تجدر الاشارة اليه ان حالة الدولة العباسية الاقتصادية قد ضعفت كثيراً وان ايرادات الدوله قد قلت بشكل ملحوظ مما جعل ايراد الخزينة لايكفي نفقات الدولة ومتطلبات مؤسساتها من ادارة وجيش وبلاط عباسي وحريم وغيرها . لم تعد الدولة العباسية كأيام الرشيد كتلك الدولة المترامية الاطراف الواسعة الموارد . لقد تغيرت الخارطة السياسية لنفوذ الخلافة العباسية المركزية ونتيجة لذلك تقلصت الواردات . وعليه فأن هذا الوضع قد احرج الخليفة المهتدي وسبب له المأزق خاصة امام متطلبات الدولة الضرورية . فتقول مصادرنا التأريخية ان الخليفة العباسي كان عاجزاً عن معالجة الوضع الاقتصادي والامني المتردي في بغداد وهي القريبة من مركز حكمه فكيف الحال بالولايات البعيدة وحدود الدولة القصية . ويعود سبب ذلك الى انغماس قادة الجيش الاتراك في امور السياسة ، وتركهم لمهامهم الاساسية وهي ضبط الامن الداخلي وتأمين حدود الدولة العربية من غائلة العدوان الخارجي . لقد أدى ذلك التدخل في اضعاف السلطة المركزية ولذلك فأن الباحث التأريخي لايجد صعوبة في نفي حيرته وتساؤلاته عندما يتعرف على حقيقة موقف القواد الاتراك من السلطة المركزية ودورهم في اضعافها . ومايجري في بغداد هو مثل على السلوك اللامسؤول من قبل القادة العسكريين فتذكر المصادر التأريخية المتوفرة لدينا أن أهل بغداد والجند فيها ثاروا على محمد بن اوس البلخي لأنه جاء الى بغداد من خراسان ومعه سليمان بن عبد الله بن طاهر قائداً على الجيش المرافق لهما وكان من مواليهم وصعاليكهم وكان عطاء هذا الجيش مخصص في ديوان خراسان وليس من بيت مال بغداد لأن اسماء جند خراسان مسجلة في ديوان خراسان. وكان المتبع سابقاً لمثل هذه الحالات ان يدفع للجند القادمين من خراسان من دخل ضياع ورثة القائد طاهر بن الحسين ثم يرسل الى خراسان بتسليم الوارثين الارزاق من بيت المال كبديل له .

وكانت هذه الصيغة هي القاعدة المعمول بها مسبقاً . بيد ان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين عامل بغداد قد استحوذ على المال الموجود في خزينة الورثة وترك بغداد لسليمان

بن عبد الله بن طاهر الذي وجد الخزينة فارغة ، فتحرج موقفه في دفع رواتب جند خراسان والصعاليك وكحل مؤقت دفع رواتبهم من رواتب جند بغداد فثاروا هؤلاء الجند بأعتبار ان ماموجود من ارزاق هو من حصتهم ومن حقهم وليس لإجناد الأقاليم الاخرى الحق في مشاركتهم بذلك .

يضاف الى ذلك أن جند خراسان والداخلين معهم من الصعاليك لم يحترموا اهل بغداد ، بل دخلوها كغرباء فلم يحتشموا في تصرفاتهم واظهروا المحارم . عند ذاك اعلنت العامة يساندها جند بغداد الثورة وكسروا السجن واخرجوا مَنْ به وحدث الصدام بين ابن اوس البلخي وأهل بغداد وجرح في الصدام ونهبت داره ولم تهدأ الحال الى ان غادر بغداد مع جنده من الصعاليك حيث ولاه القائد التركي بايكباك طريق خراسان(١٩) . وبهذا الهدوء المؤقت الذي ساد مدينة بغداد ظهر خطر آخر يهدد استقرار وأمن الدولة وهم الخوارج .

ثالثاً : ظهور خطر الخوارج :

ان احد اسباب تداعي أمن الحالة الداخلية للدولة العباسية هو الخطر الخارجي . فقد ظهر في سنة ٢٥٥هـ زعيم للخوارج يدعى مساور بن عبد الحميد الشاري الذي استغل حالة الفوضى التي تمر بها الدولة العباسية وعجزها عن توكيد الأمن الداخلي فبدأ بنشاطاته العسكرية. وكان هدف مساور الخارجي الموصل واعمالها والطريق التجاري الموصل بين الموصل وبغداد . وقد نجح مساور الشاري في الاستيلاء على اعمال الموصل بغياب عين الدولة وخمول عمالها في التصدي له . وقد ذكرت المصادر الرئيسة أن اتباعه قد كثروا وأصبح خطراً يتهدد مصالح الدولة وخاصة بقطع خراجها . وحاولت الدولة التصدي له بجيش من الموصل بقيادة الحسن بن أيوب العدوي حيث اصطدم جيش الدولة بمساور الخارجي في وادي الريات بالقرب من الزاب واندحر فيها جيش الدولة العباسية وتمكن الحسن بن ايوب من الانسحاب الى احد مدن اربل رغم الخسرة الجسيمة التي تكبدها . وقد اكسبت هذه المعركة مساوراً الكثير من الشهرة والاتباع (٢٠). وتورد بعض مصادرنا ان مساور قد بلغ بجرأته الى حد الاقتراب من سامراء عاصمة الدولة حيث انقطع حبل الامن واضطربت امور الرعية وتضررت مصالحها وظهر قطاع الطرق مما دعا الخليفة المهتدي الى ارسال القائدين موسى بن بغا وبلكياك لمحاربته ولكن بدون نتيجة حاسمة (٢١). وبالتأكيد فأن مساور الخارجي كان يعرف حالة الدولة العباسية فقرر مهاجمة الموصل فنزل في ضواحيها بمكان عند الدير الاعلى . ويبدو ان معنويات الناس وامير الموصل كانت

هابطة بحيث لم يخرج احد لملاقاته. واحسن مساور الخارجي بهذا الأنكسار النفسي فتجرأ على امير الموصل وحرق داره بواسطة اتباعه وعندما تأكد لديه انخذال الناس فيها وعجزهم عن الدفاع عنها دخلها واحتلها لإيام عديدة وصلى فيها الجمعة وخطب في الناس ثم تركها متوجهاً الى مدينة الموصل حيث اختارها كمكان لاقامته وداراً لهجرته (٢٢). ومع ذلك فأن مساور الخارجي قد تعرض الى انشقاق احد اتباعه واسمه عبيدة من بني زهير العمروي حول مسألة اجتهادية وهي قبول توبة المخطي فكان من رأي مساور الخارجي قبولها غير ان عبيدة اصر على عدم قبولها ووصل الخلاف الى لغة القوة ، واندحر عبيدة الذي كان على مايبدو في قلة من اتباعه في مكان بنواحي جهينة بالقرب من الموصل في جمادي الاولى سنة ٢٥٥هـ وقتل عبيدة .

بعد هذه المعركة اشتد امر مساور الخارجي وقويت سلطته على اجزاء من العراق ومنع ذهاب الخراج الى خزينة الدولة . وتوجهت جند الدولة لحسم امره ووصلوا الى منطقة السن بقيادة موسى بن بغا وبايكباك ولكنهم لم يلتقوا به وقفلوا راجعين . وبلغ مساور في نشاطاته العسكرية مدينة بلد واعلن الخليفة التعبئة لمواجهة هذا الخطر المستفحل . وكان الخليفة والقادة الاتراك منشغلين بمسألة اختفاء صالح بن وصيف فلم يخرج القادة الاتراك للتصدي لمساور الخارجي مخافة ان يخرج صالح بن وصيف من مكان اختفائه ويأخذهم على حين غرة (٢٣). وبناءً عليه فأن مصلحة الدولة العليا قد ضاعت امام مصالح هؤلاء القادة العسكريين . وظل خطر مساور الشاري مهدداً أمن الدولة العباسية حتى بعد مقتل الخليفة المهتدي . وشاءت الاقدار ان يبرز في عهد المهتدي خطر آخر في جنوب العراق ساهم بشكل فعال في اضعاف بنية الدولة العباسية وهو خطر الزنج .

رابعاً : اولى بوادر ظهور حركة الزنج :

لعبت حركة الزنج دوراً تخريبياً ضد كيان الدولة العباسية فقد استغرقت اربعة عشر عاماً ونيفاً منذ سنة ٢٥٥هـ وحتى ٢٧٠هـ، وكانت سبباً في هدر الكثير من طاقات الدولة المادية والبشرية التي هي احوج ماتكون في توجيهها الى مرافق أخرى . وقد تصدى الى بحث هذه الحركة من اسباب وظروف ونتائج الكثير من الباحثين وظلت الآراء متباينة حولها(٢٤). فكل باحث ينطلق من رأي يؤمن به غير أن الحقائق التاريخية تظل هي الفصل في هذه المسألة ويبقى الحكم للتأريخ من خلال ماتوفر لدينا من معلومات . مامن شك ان هذه الحركة قد اشغلت الدولة العباسية وكان خط سيرها الدائم هو النهب والسلب والتدمير الى أن هيأ

للخلافة ابو احمد الموفق الذي استطاع ببراعته العسكرية والسياسية القضاء عليها بجهود كبيرة وتضحيات جسيمة سنة ٢٧٠هـ. لم يكن عصر المهتدي هادئاً بل كان صاخباً بالاحداث وكانت الأخطار محدقة به من كل صوب ، واحد هذه الأخطار حركة الزنج . فقد قام صاحب الزنج بحركته في منطقة البصرة واستطاع ان يستميل الزنج وهم عمال الكسح الارض السنجة في جنوب العراق ووعدهم بالأمتيازات وبتحريرهم من حالة العبودية التي يرزحون في ظلها (٢٥). وكانت الخلافة العباسية منشغلة بمشاكلها الداخلية والتي كان سببها الرئيسي تدخل القادة العسكريين الاتراك في شؤون الخلافة السياسية . ولو تهيأت الظروف المناسبة للخلافة العباسية منذ عهد المهتدي لتمكن من حشد الطاقات اللازمة للقضاء على حركة الزنج في مهدها ، لكنها انتعشت ونمت بسبب انشغال الخليفة بصراعه مع القواد الاتراك الذين لم يكونوا ليهتموا بمصالحهم الذاتية واستمرار امتيازاتهم.

المبحث الخامس : مواجهة المهتدي للقادة العسكريين الأتراك :

اولاً : مداهمة القائد التركي موسى بن بغا للعاصمة سامراء

كان موسى بن بغا مكلفاً بالحفاظ على امن اقليم الري خاصة بعد اضطرابه نظراً لخروج الطالبين فيه على سلطة الدولة العباسية . فيذكر المؤرخون ان مبرر ترك موسى بن بغا لثغر الري والتوجه لسامراء هو مناظرة القائد صالح بن وصيف، ومحاسبته على الاموال التي اخذها من الكتاب وام المعتز . والحالة هذه فأن الشخص الوحيد المؤهل للقيام بمثل هذا الاجراء هو الخليفة المهتدي وليس من اختصاص اي شخص آخر. ومهما يكن الامر فأن القائد موسى بن بغا قد توجه بجيشه نحو سامراء رغم الحاح الخليفة المهتدي بالبقاء في اقليم الري والعمل على ضبطه من عبث الثائرين. وقد جرت مراسلات بين المهتدي وهذا القائد التركي الذي لم يقتنع برأي الخليفة العباسي واستمر في مسيره باتجاه العاصمة سامراء (٢٦) .

واوردت مصادرنا التأريخية نص شكوى الخليفة المهتدي من عناد وتمرد القائد موسى ابن بغا وعدم اصغائه لامر المهتدي الذي كان يدعو عليه في مجالسه بقوله : «اللهم اني ابرأ اليك من فعل موسى بن بغا واخلاله بالثغر واباحته للعدو واني قد اعذرت اليه فيما بيني وبينه ...» (٢٧).

هذا ومما تجدر الاشارة اليه ان صالح بن وصيف كان يخاف وصول موسى بن بغا حتى لايحاسبه على الاموال التي استولى عليها من الكتاب وام المعتز. وكان يحرض الخليفة المهتدي على القائد موسى بن بغا ويعد مسيره، رغم ارادة الخليفة وبدون رضاه، من باب التخلف والتمرد على سلطة الخليفة المهتدي. ومن جهته، فأن القائد موسى بن بغا كان يظن ان الخليفة والقائد صالح بن وصيف متفقان معاً ضده. وبادر الخليفة المهتدي الى ارسال رسولين هاشميين لغرض اقناع موسى بن بغا بضرورة رجوعه الى الري ولكنهما اخفقا في مهمتهما. وترد اشارة في مصادرنا التأريخية تؤكد بأن القائد موسى بن بغا قد نجح في تعبئة جيشه نفسياً في ضرورة المسير الى سامراء واولوية محاسبة صالح بن وصيف الذي اتهمه موسى بن بغا بقتل الخليفة العباسي المعتز. وصور هذا القائد لعسكره ان الرجوع عن هذه المهمة يعد تقصيراً في اهم واجباتهم. وقد ارسل موسى بن بغا خطاباً الى المهتدي يبرر فيه مسيره نحو العاصمة غير ان هذه المبررات لم تكن مقنعة وان رائحة التآمر تفوح من اسطر الخطاب. وقد اظهر الخليفة بانه يود رؤيته وانه لايأمن غدر جيشه اذا ماراد الرجوع. ودليله ماشاهده الرسولان الهاشميان اللذان كادا أن يقتلا من قبل الجيش بمجرد طرح فكرة الرجوع الى الري. ودخل موسى بن بغا الى سامراء في محرم سنة ٢٥٥هـ وهو في حالة تعبئه خوفاً من استعدادات القائد صالح بن وصيف. يبقى أن نتساءل لماذا لم يأخذ القائد صالح بن وصيف الحيطة لنفسه امام قدوم خصمه موسى بن بغا خاصة اذا علمنا أن له جنداً وانصاراً بل آثر الاختفاء عن الأنظار مما يدلل على ضعف موقفه وليس لتجنب الفتنة (٢٨) .

ثانياً : إئتمار القادة الأتراك ضد المهتدي :

انه لمن الضروري قوله ان دخول موسى بن بغا بعسكره في العاصمة سامراء وهو في حالة تعبئة يعتبر من باب الاحتلال العسكري لحاضرة الدولة العباسية . وبالفعل فقد بدأ القائد موسى بن بغا يتصرف وكأنه المتنفذ في الأمور وصاحب القرار السياسي في سامراء. لقد اصبح الخليفة المهتدي امام الامر الواقع واصبح لزاماً عليه ان يتصرف بما يحفظ هيبة الخلافة. والملاحظ ان الخليفة لم يكن يمتلك قوة عسكرية تستطيع أن تدافع عن العاصمة وعلى الأقل اشعار القادة الأتراك بقوة مؤسسة الخلافة من الناحية العسكرية. وهذه هي نقطة الضعف التي استغلها القادة الاتراك. وعلى أية حال، توجه موسى بن بغا الى مجلس الخليفة حيث يجلس الخليفة المهتدي لرد خلافات الناس ورفع الحيف عنهم كما هي عادته

منذ توليته الخلافة. وعلم المهتدي بخبر وصول القائد موسى بن بغا الذي طلب رؤية الخليفة والتباحث معه حول موقف صالح بن وصيف. وتصرف الخليفة بذكاء بأن تجاهل وجود القائد موسى بن بغا ساعة من الزمن واشعره بوجوب احترام الخلافة ثم سمح لموسى بن بغا بالدخول عليه. لقد ارتكب هذا القائد التركي خطأً كبيراً بأيوائه قائداً متمرداً على السلطة العباسية وهو كنجور وقد طالب الخليفة بتسليمه باعتباره خارجاً على الدولة إلا أن موسى بن بغا منحه حمايته وضمه الى جيشه لكي يتقوى به ضد ارادة الخليفة (٢٩). ومن هذا نستنتج مقصد موسى بن بغا وهو أن جيش هذا القائد التركي هو خدمة اعداء الدولة والمصالح الشخصية وليس للدفاع عنها. وزيادة عن ذلك فأن قائداً آخر هو بايكباك قد التحق بجيش موسى بن بغا وبهذا تكونت ضد الخليفة جبهة مناهضة تهدف فرض ارادتها. ونتيجة لما فعله موسى بن بغا فأنه قد منح نفسه صلاحيات ايواء الخارجين على الدولة العباسية وعطل قدرتها في محاسبة المسيئين لها.

ثالثاً : الخليفة المهتدي محل اتهام القادة الأتراك :

ادرك المهتدي ان دخول موسى بن بغا بعسكره الى العاصمة هو من باب فرض الشروط وقد احرج موقف الخليفة اختفاء صالح بن وصيف عن الانظار. لقد اعتقد القادة الاتراك أن الخليفة يعلم بموضع اختفاء صالح بن وصيف وانه لايريد اخبارهم بذلك. واضافة الى ذلك فان القادة الاتراك لم يصدقوا ما كان يظهره الخليفة من نوايا حسنة تجاههم بل انهم على العكس كانوا يظنون به الظنون. وذهب ظنهم الى حد اعتقدوا به ان الخليفة متفق مسبقاً مع صالح بن وصيف قبل دخولهم سامراء لكي يختفي وانه قد خطط معه للتخلص منهم متى ماسنحت الظروف بذلك. وقد سبق لصالح بن وصيف ان اتهم الخليفة بأنه يكاتب موسى بن بغا سراً للقدوم الى سامراء بينما يتظاهر امامه بالتذمر من مسيره نحو سامراء. وهٰذا فأن الخليفة قد وقع في موقف حرج لاشأن له به. لم يتمكن الخليفة المهتدي من اقناع القادة الاتراك ببرائته الامر الذي دفع بالقادة الى ارغامه بترك مجلسه في دار المظالم والذهاب معهم لكي يلبي رغبتهم لحد انه تذمر من تصرفهم الخشن معه بقوله للقائد التركي موسى بن بغا : «ماتريد ويحك! اتق الله وخفه ، فانك تركب امراً عظيماً» (٣٠). فأجابه موسى بن بغا بأنه لايريد به شراً وحلف بتربة المتوكل كتأكيد على كلامه.

وقد ذكر احد المؤرخين تعليقاً طريفاً مؤداه ان موسى بن بغا لو كان صادقاً لحلف بتربة المعتصم او الواثق وليس بتربة المتوكل الذي ذهب ضحية تآمرهم. وقد اساء القادة الاتراك التصرف مع الخليفة المهتدي ونهبوا جوسق الخلافه وما فيه من حاجات الخليفة والدواب المربوطة حوله. وكان الشك قد غلب على نفوس القادة الاتراك من موقف الخليفة الرصين والهادىء فأصروا على تغيير مكان الاجتماع لئلا يداهمهم صالح بن وصيف فذهبوا بالخليفة الى احد بيوت القادة الاتراك لكي يحاوروه بأمر صالح بن وصيف. وبلغت التجاوزات على هيبة الخليفة حد اتهامه صراحة بأنه يخبي صالح بن وصيف وانه يعلم بمكان اختفائه. وعندما رفض الخليفة بشدة اتهامهم طلبوا منه امرين. الاول: ان لايغدر بهم ولا يتآمر عليهم. والثاني : ان لاينحاز الى جانب صالح بن وصيف ضدهم عند ذلك ، اعطاهم العهد والميثاق على أن يفعل ذلك ، فجددوا عندها البيعة له. والجدير بالذكر انهم كانوا يتحدثون بالتركية بينهم مما يدلل على أنهم كانوا يدبرون امراً فيما لو أنهم لم يصلوا الى اتفاق مع الخليفة المهتدي بشأن صالح بن وصيف. وعلى أية حال، فقد اتفق المهتدي مع القادة الاتراك على السعي لإخراج صالح بن وصيف من مكان اختفائه بغرض محاورته حول مصير الأموال المأخوذة من الكتاب وام المعتز، وقد وعد الخليفة القواد الاتراك بالعمل على تحقيق ذلك الهدف (٣١). ولعل المرء يشم من خلال هذه المحاورة بين الخليفة والقادة الاتراك ان المهتدي كان يعرف بمكان اختباء صالح إبن وصيف. وثمة امر آخر هو أن الخليفة قد ساير القادة الاتراك بهدف اتقاء شرهم وابعاد شكوكهم عنه فيما لو اصر على عناده.

رابعاً : تصدي الخليفة المهتدي لقرار الخلع :

لقد ظن القادة الاتراك بأن الخليفة المهتدي يتآمر ضدهم وينحاز الى القائد المستتر صالح إبن وصيف قبل عملية العثور عليه. فاجتمعوا بدار موسى بن بغا وقرروا بعد مداولات كثيرة ان يخلعوا بالقوة الخليفة المهتدي من منصب الخلافة. وتؤكد المصادر التأريخية المتوفرة لدينا ان المجتمعين لم يكونوا جميعهم على رأي واحد، فقد ظهر خلاف واضح حول قرار الخلع. وكان على رأس المعترضين احد القادة الاتراك المشهورين وقد حذرهم من الاستخفاف بالخليفة بقوله: «انكم قتلتم ابن المتوكل وهو حسن الوجه، سخي الكف، فاضل النفس وتريدون قتل هذا، وهو مسلم يصوم ولا يشرب النبيذ من غير ذنب والله لئن قتلتم هذا لالحقن بخراسان ولاشيعن امركم هناك» (٣٢) ووصل خبر اجتماعهم

وقرارهم بالخلع الى مسامع المهتدي فلم يرضخ لواقع الامر بل غضب على تجاوزات القادة الاتراك وتوجه الى دار الخلافة وهو متقلد سيفه ودخل عليه القادة الاتراك وصارحهم بالحقيقة المرة . لقد اورد مؤرخونا تفاصيل موقف الخليفة الجرىء الذي اذهل القادة الاتراك وقد نجح المهتدي بتصرفه الشجاع الذي افشل مخطط القواد الاتراك حيث ظهر المهتدي لهم بأنه رجل صلب لايلين عوده. وقد حذر المهتدي القادة الاتراك : بقوله : «انه قد بلغني ماانتم عليه من امري ، ولست كمن تقدمني مثل احمد بن محمد المستعين ولا مثل ابن قبيحة ، والله ماخرجت اليكم إلا وانا متحنط وقد اوصيت الى اخوتي بولدي وهذا سيفي والله لاضربن به مااستمسك قائمة بيدي، والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن او ليذهبوا بها اكثركم،اما دين! اما حياء! اما دعه! كم يكون الاجتراء على الخلفاء والاقدام والجرأة على الله!» (٣٣) .

كان الخليفة صادق اللهجة ، حاد النبرة ولم يكن خائفاً من اجتماع القادة الاتراك ضده فقد كان الخليفة جاد في مواجهة القادة الاتراك مهما كلفته من نتائج فلما تحقق القادة الاتراك من قوة موقف المهتدي طلبوا ضمانات على حسن نيته تجاههم اذ انهم كانوا يخافونه على أنفسهم وطلبوا منه ان يحلف لهم فقبل منهم ذلك شريطة ان يحضر الهاشميون والقضاة والوزراء . واجتمعوا في اليوم التالي وكان الجمعة فصلى بهم الخليفة واستقرت الناس وهدأت وأفترقوا متهادنين وكان ذلك في المحرم من سنة ٢٥٦ هـ (٣٤) .

ولابد من ذكر نقطة مهمة هي ان نفوراً قد وقع بين الخليفة المهتدي والقائد التركي بايكباك لأن الخليفة اعلن صراحة عن اشتراك بايكباك مع صالح بن وصيف في اخذ الاموال من الكتاب وام المعتز .

لقد خشي القادة الاتراك هياج العامة عليهم وكانت الاموال تنقصهم لتسكين ثائرة العامة وقد تبدل الحال فعلاً بوصول الاموال من فارس والاهواز مما دعم ذلك من موقفهم امام الخليفة وكان ذلك في نهاية شهر محرم ٢٥٦هـ (٣١) .

المبحث السادس : الخليفة المهتدي ومحاولات الاصلاح

اولاً : هياج العامة ضد القادة الاتراك :

ان وطأة سيطرة الاتراك على مقاليد الامور السياسية والاقتصادية كانت شديدة على العامة الذين كانوا يتحينون الفرص للثورة عليهم . ولما انتشر خبر خلع القواد الاتراك للمهتدي عن منصب الخلافة هاجت العامة واعتبرت قرار الخلع مساسا في مصالحها . فقد

انتشرت في الجوامع والطرقات في سامراء كتابات تحث الناس الى نصرة الخليفة العباسي ضد تهديد الاتراك للخليفة المهتدي .وقارنت العامة بين سيرة الخليفة العباسي المهتدي وسيرة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض) . وكان تحرك الناس في سامراء والدور في شهر صفر عام ٢٥٦ هـ . وقد ارسلوا الى المهتدي بأنهم يريدون ان يتفاهمون معه ويطلعوه عن مواقفهم فأرسل اخاه عبد الله أبا القاسم ، واجتمعت العامة بأخي الخليفة حيث اخبروه بطاعتهم للمهتدي وانهم على استعداد للدفاع عن حق الخليفة في البقاء في الحكم. وعرضوا لأخي الخليفة سوء حالتهم المعيشية وتأخر ارزاقهم عن موعد وصولها ثم تطرقوا الى موضوع امتيازات الاتراك من ضياع وايرادات مع امتيازات مواليهم ونسائهم. مضافاً الى ذلك ان الخراج اصبح من حصة القادة الاتراك (٣٦) . وكتبوا بذلك الى الخليفة المهتدي فرد عليهم بخطاب بخط يده وتوقيعه وسلّم الرد الى اخيه عبد الله . وقرأ رسول الخليفة رد المهتدي الى العامة والذي يتضمن شكر الخليفة لموقف العامة المساند له في محنته مع القادة الاتراك . وأكد لهم بأنه سوف يسعى بكل جهده لتحسين حالتهم المعيشية وان اضطره ذلك الى اخذ لقمة اولاده ودفعها لهم . وتناول الخليفة المهتدي مسألة امتيازات الاتراك ومواليهم ونسائهم بالنظر فيها وسوف يتخذ الاجراء المناسب حولها .ومما تجدر اليه الاشارة ان ما طالبه من العامة بشأن الاصلاح السياسي والاقتصادي هو البداية الصحيحة الأولى التي استجاب اليها المهتدي وسعى من اجل تحقيقها. وقد ذكر المؤرخون الاوائل أن القادة الاتراك قد رضخوا لمطاليب العامة مرغمين على الرغم مما يشكله ذلك من تهديد لمصالحهم وامتيازاتهم . وقد توصل الخليفة المهتدي والعامة عبر مراسلاته معهم الى اتفاق أن يكون الخليفة المتصرف بالشؤون العامة والخاصة وان لايتدخل احد في اختصاصاته . وبلاشك فأن العامة تقصد بذلك القادة الاتراك ومواليهم . وبذلك اتفقوا على اعادة رسوم العامة التي كانت جارية في عهد المستعين .

واتفقوا كذلك على تعيين قائد على مجموعات منهم وعلى جراية الارزاق في مواعيدها كل شهرين واوعد الخليفة بالغاء امتيازات القادة الاتراك التي تضر بالصالح العام (٣٧) . واقرّ القادة الاتراك على مضض منهم هذه الاجراءات واعتذروا خطياً عن التجاوزات والاساءات التي لحقت بالعامة من قبلهم ومن قبل مواليهم . وطالبت العامة تعيين احد اخوة الخليفة كقائد للجيش ويعني هذا المطلب ابعاد العناصر التركية من مراكز الجيش الاعتيادية . واخيراً [illegible]

ولم تستمر الامور بشكلها الطبيعي فسرعان ماتبدلت مواقف العامة ومطاليبها وهو امر يدعو الى الاستغراب . فتمدنا مصادرنا الرئيسية بمعلومات تدعونا الى التأمل حول المستفيد من المطالب الجديدة التي هي متناقضة عن سابقتها . يضاف الى ذلك ان الخلاف قد دب بين العامة ففريق يطالب باجراء معين وفريق ثان يطالب بمطلب آخر. والمدهش حقاً أن المطالب الجديدة تصب في مصلحة القادة الاتراك . وهذا يدعونا الى الاعتقاد أن القادة الاتراك قد اشتروا بالمال بعض الفرقاء من العامة ودسوا من مواليهم بين العامة لكي يطالبوا بالمطاليب الجديدة . وعلى أية حال فان الهرج قد ساد سامراء وكان ذلك في صالح القادة الاتراك . (٢٨) وقد خدمت الاتراك حادثة العثور على صالح بن وصيف الذي حوّل انتباه العامة الى امر جديد .

ثانياً : ظروف مقتل صالح بن وصيف ونتائجه

ظل صالح بن وصيف مستخفياً عن الانظار طيلة شهر دون ان يفلح القادة الاتراك في العثور عليه (٣٩). ولعله من المنطقي ان نتساءل هل أن محاسبة صالح بن وصيف عن الاموال التي استولى عليها من صلاحيات القادة الاتراك ام من اختصاص الخليفة العباسي الذي يعتبر المسؤول الأول في الدولة العباسية . ان مايهم القادة الاتراك هي تلك الاموال التي ظلت بحوزة صالح بن وصيف وليس إحقاق حق يرونه قد هضم . فهؤلاء القادة يرون في هذه الاموال مصدر قوة لصالح بن وصيف يستطيع بواسطتها ان يكسب الاعوان والانصار ويصبح مركزه قوياً عند الخليفة . وبالتالي فان صالح بن وصيف سينافس مركز القادة الاتراك الآخرين وقد يتغلب عليهم وهذا مايخشونه بالدرجة الاساس . لقد كان اول دافع لقدوم موسى بن بغا ومن معه من القواد الاتراك هو المال الذي اصبح تحت تصرف صالح بن وصيف . ومهما يكن من امر ، فقد استمر البحث دون ان يصلوا الى نتيجة مرضية الى ان جاءت رسالة عن طريق امرأة . ويبدو انها كانت واسطة لإيصال الرسالة والدليل على ذلك انها اعطت معلومات كاذبة عن محل اقامتها وبعد التحري لم يجدوا لها اثراً . واطلع الخليفة المهتدي على الرسالة بحضور القادة الاتراك وتبينوا ان كاتب الرسالة هو صالح بن وصيف . وقد أخبرهم بأن سبب اختفائه هو اجتناب الفتنة وانه يخاف على حياته من الغدر وان الاموال لازالت بحوزته وانه ليس بالضعيف كما يتوهمون .

ويُفهم من الرسالة ان صالح بن وصيف كان متأكداً من غدر القادة الاتراك وان غرضه من ارسال الرسالة هو فتح باب التفاوض والتفاهم . وقد فهم الخليفة العباسي المهتدي

مقصده فحث القادة الاتراك باللجوء الى الروية واجتناب اراقة الدماء مما دفع القادة الاتراك الى اتهامه علانية بأنه متواطيء مع صالح بن وصيف ولايريد ان يدلهم على موضعه . وهو تفسير قد يبدو موضوعياً امام ماجاء في الرسالة ومع منطق الخليفة الداعي الى السكينة (٤٠). بيد ان الأقدار قد شاءت لكي تحول هذا الصراع نحو النهاية المحزنة . فقد تم العثور على صالح بن وصيف وتم قتله . ومصادرنا تذكر ان العثور عليه تم من باب الصدفة وانه اقتيد الى القادة الاتراك ولم يقف معه أحد ولم يظهر له مدافع وتم تعذيبه وقتله . ومصدر من مصادرنا التأريخية يورد انه دافع عن نفسه في محل اختفائه بعد انكشافه وتم القضاء عليه. تبقى مسألة نود ذكرها ان المؤرخين لم يذكروا شيئاً حول استجواب القادة الاتراك لصالح إبن وصيف عن مصير الاموال التي استولى عليها ، ولعلهم قد حصلوا عليها وتجاهلت مصادرنا ذكرها . ومهما يكن الامر فأن مسألة العثور عليه يكتنفها الغموض وهي بحاجة الى توضيح . فتذكر المصادر التاريخية ان موضعه اكتشف عن طريق الصدفة لعل اكتشافه تم عن طريق وشاية احد مواليه وانصاره . أوان البحث والتفتيش قد اديا الى معرفة مكان اختفائه . وقد عمد القادة الاتراك الى اسقاط اسم اتباع وموالي صالح بن وصيف من سجل العطاء في عدم تعاونهم او اعطاء معلومات عن مكان صالح بن وصيف(٤١). وهذا اسلوب اقتصادي يستهدف الضغط على اتباع صالح بن وصيف وغرضه ان يتخلوا عنه وان لايساندوه في محنته (٤٢) . وامام تضارب الاخبار التأريخية وعدم ثبوتيتها يلجأ الباحث التأريخي الى التكهن والافتراض من اجل الوصول الى قناعة معينة يجدها مقبولة في نفسه . وبعد مقتل صالح بن وصيف استقرت النفوس وانصرفت الخلافة الى مواجهة الخطر المتمثل بمساور الخارجي الذي سيطر على مناطق الدولة العباسية ابتداءً من سنجار وحتى بلد. فخرج القادة الاتراك مرسى بن بغا وبايكباك ومفلح للتصدي له غير ان النوايا كانت غير صالحة خاصة وان المهتدي رأى في وجودهم خطراً يهدد شرعية الخلافة العباسية .

ثالثاً : تدمير الخليفة المهتدي ومقتله :

رأى الخليفة العباسي المهتدي ان لاراحة للخلافة العباسية بوجود القادة الاتراك ، ذلك الوجود الذي يمثل خطراً داهماً للخلافة ، فلابد والحال هذا أن يعمل المهتدي ، بازاحتهم عن طريقه والقضاء على وجودهم من مسرح السياسة العباسية . وقد اعمل الخليفة المهتدي التدبير والتخطيط بأن يبعد هؤلاء القادة عن عاصمة الخلافة لكي يتاح له الوقت في تطبيق خطته ، وقد خطط المهتدي ان يجعل القادة الاتراك يضرب بعضهم البعض . وواتته الفرصة بخروج بايكباك وموسى بن بغا ومفلح لقتال مساور بن عبد الحميد الشاري الذي هدد بنشاطاته العسكرية أمن الدولة العباسية . ويبدو أن المهتدي كان

متسرعاً بارسال رسالة الى القائد التركي بايكباك يعينه بها اميراً على جيشه وجيش موسى إبن بغا ، والهدف من هذا الاجراء هو اضعاف مركز موسى بن بغا وابعاده عن مركز القيادة العسكرية . ويدلل هذا التعيين كذلك خلق حساسية بين القائدين التركيين وان المستفيد الوحيد هو الخليفة المهتدي لأنه يريد ان يجرد موسى بن بغا من عناصر قوته ووجوده . وهذا القرار له ما يفسره وهو عدم خلوص نية الخليفة تجاه موسى بن بغا والخطوة الاخرى التي لم يدرسها الخليفة المهتدي بشكل عميق تكمن في طلبه من القائد بايكباك ان يتخلص من موسى بن بغا ومفلح (٤٣) . أنه لمن المدهش حقاً ان يقوم الخليفة المهتدي بمثل هذه الخطوة الساذجة التي لايحتاج المرء الى كثير عناء لمعرفة دوافعها واسبابها ، لقد كانت علاقة المهتدي بالقادة الاتراك يسودها التوتر ويغلب عليها الشك والحذر لذا فإن أي تصرف غير مدروس من قبل المهتدي سوف يزيد من شكوكهم ويجعلهم يتربصون به الدوائر . ان وصول كتاب الخليفة الى القائد التركي بايكباك يعني ان جسور الثقة والاطمئنان قد انقطعت بينهم وبين القائم بالامر وهو المهتدي ، وبناءً على ذلك فأن الامر قد وصل الى نقطة الحسم فاما أن يتخلص منهم ، المهتدي واحداً بعد الاخر وإما أن يبادروا فيقضوا عليه . ولكن طرف تدبيره وامكاناته وصل كتاب المهتدي لبايكباك فعرضه على موسى بن بغا واتفقوا على ان يذهب بايكباك الى سامراء باعتبار ان الخليفة يفضله اكثر من موسى بن بغا ، ويضاف الى أن الخليفة قد كاتبه وجعل الخيار بيده واذا مادخل سامراء فان الخليفة قد لايتشكك بنواياه ، ومن جهة موسى بن بغا قرر أن يتجه نحو خراسان حتى يبعد الشك عن نفس المهتدي ، وتقول ، أنه كان يتحرج من قتال المهتدي . وجعلوا أمر التخلص من المهتدي للظروف المناسبة (٤٤). ويبدو ان المهتدي لم يكن غافلا عن تحركاتهم . فهو لم ينخدع بمعاذير بايكباك عندما واجهه الخليفة عن سبب مجيئه وعن دافع تركه قتال مساور الشاري . لقد اتهم المهتدي بايكباك بأنه متواطئ مع موسى بن بغا لأن الضرورة تقتضي أن يكونوا منصرفين لحرب الخوارج . عند ذاك لم يقتنع المهتدي بكلام بايكباك بأن وجوده هو تعزيز للخليفة وقرر التخلص من هذا القائد التركي فجرده من سلاحه وجيشه ينتظره في خارج دار الخلافة وتلك خطوة جريئة اراد بها المهتدي أن يعيد مافعله المنصور بأبي مسلم الخراساني خاصة وقد نصحه احد اقربائه وهو صالح بن علي بن يعقوب بن ابي جعفر المنصور بقتل بايكباك ورمي رأسه الى جيشه الموجود أمام الجوسق فتهدأ عند ذاك ثائراتهم عندما يرون رأس قائدهم ويرضخون امام الامر الواقع (٤٥) . غير ان الامور لم تجري كما كانوا يشتهون لأن الظروف التأريخية كانت مختلفة زماناً ومكاناً وان الرجال ليسوا كرجال العصر العباسي الاول .

فزمان المنصور ليس بزمان المهتدي ورجال الأول واخلاصهم ليسوا كرجال المهتدي فبدلاً من أن يستسلم جيش بايكباك لمقتل قائده ، ثارت ثأرتهم واشتبكوا مع جيش الخليفة المكون من اخلاط من الناس من الاتراك والفراعنة والمغاربة والاشروسنية الذين بايعوا الخليفة على القتال والطاعة (٤٦). ان هذا الخليط الغير متجانس قد خلق معادلة غير متوازنة في جيش الخليفة اذ سرعان ماسوف ينسحب الاتراك المتواجدين في جيش الخليفة وينضموا الى صفوف القادة الاتراك . وانه لمن الضروري القول هنا أن بعض مصادرنا التاريخية تؤكد أن مقتل بايكباك قد وقع في المصادمات عند جسر سامراء بين عسكر الخليفة وعسكر بايكباك (٤٧) . لقد اتحدت جميع جيوش الاتراك وقادتهم ضد المهتدي الذي كان يمتلك جيشاً هابط العزائم ، هش التكوين وعلى الرغم من مناشدة الخليفة جيشه في الثبات وسيفه بيده إلا أن الهزيمة قد حاقت بجيشه فأنسحب الى دار صاحب الشرطة احمد بن جميل والتجأ اليها فلحق به القادة الاتراك ومواليهم واخرجوه واساءوا اليه وعذبوه وقتلوه . والروايات التاريخية تختلف حول كيفية مقتله إلا ان السياق العام يؤدي الى نتيجة واحدة هي انقلاب القادة الاتراك ضد الخليفة وتصديه لهم وهزيمته ومقتله في رجب عام ٢٥٦هـ (٤٨) .

الخاتمة

تجمع كافة مصادرنا التأريخية على أن مدة حكم المهتدي هي أحد عشر شهراً (٤٩). قضاها باحقاق العدل وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز (٥٠). وكان يعيش عيشة الزهاد ويلبس الخشن من الثياب ولايعرف الملاهي ولايشرب الخمر وكان متعبداً صواماً . وحرّم على نفسه مباهج الحياة وانشأ دار المظالم كان يجلس بنفسه لرفع الظلم عن الناس . وكان يراقب عماله ويحاسبهم في امور الرعية . ولم يكن مهملاً الادارة فكـــــان يراقـــب الكتاب والوزراء وكان يجلسهم بين يديه ويراجع حساباتهم (٥١). وحاول جهده اصلاح الفساد الذي دب في الادارة العباسية وان يضع حداً للامتيازات التي كان يتمتع بها القادة الاتراك ومواليهم ونسائهم بيد ان هؤلاء القادة احسوا بخطر اصلاحاته فوقفوا بوجهه وقضوا عليه . ومهما يكن من أمر فأن المهتدي قد أشر بوقفته الجريئة العلة التي اصابت جسم الخلافة العباسية وانه قد ضحى بنفسه من اجل انقاذ مؤسسة الخلافة .

لقد اضاء المهتدي الدرب لمن جاء من بعده من خلفاء بني العباس في وقت كانت المخاطر تحيق فيه بالدولة العباسية والنزعات الاستقلالية والانفصالية على اشدها ، والواقع أن المهتدي قد حكم في فترة عصيبة من تاريخ الخلافة العباسية وحاول أن يعيد للخلافة هيبتها ولكنه حصد ماأخطأ الخلفاء من قبله في زرعه .

الهوامش

(١) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ت د . علي حبيبة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، حيث يذكر الأزدي ان الاختيار كان سنة ٢١٩هـ وابتداء تشيدها كان في سنة ٢٢١ ينظر ص ٤٢٢ .

(٢) ويورد الأزدي كذلك ان المعتصم قد ولى اشناس القائد التركي على مصر والياً ، الأزدي نفس المصدر السابق ، ص٤١٦ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج١١ ، ت : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ص١٥٤ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٧ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص٣٣ .

(٤) يقول الطبري ، المصدر السابق ، ج٩ ، في صفحة ٢١٠ أن المتوكل لم يمكث اكثر من شهرين وان محاولته قد باءت بالفشل امام دسائس القادة الترك .

(٥) الطبري ، المصدرالسابق ، ج٩ ، ص١٦٨ وما بعد .

(٦) نفسه ، ص

(٧) يذكر الطبري ، ج٩ ، ص ، ان ابا احمد بن المتوكل تم ابعاده الى البصرة ثم ارجع الى بغداد وكذلك تم نفي علي بن المعتصم الى واسط . ينظر كذلك ابن الاثير ، نفس المصدر السابق ، ج٧ ، ص١٨٣ .

(٨) د . فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية خلال عصر الفوضى العسكرية ، بيروت ، ١٩٧٧ ص

(٩) اليعقوبي ، كتاب التاريخ . م٢ ، دار صادر ، بيروت ، ص٥٠٥

(١٠) الطبري ، نفس المصدر السابق ، ج٩ ، ص٢٥٢-٢٥٣ .

(١١) خلع المعتز اخاه المستعين من ولاية العهد في سامراء سنة ٢٥٢هـ واجبر على الاقرار بالخلع بخط يده ثم تلت خطوة الخلع التصفية الجسدية حتى لايكون منافسا للمعتز فتم قتله . الطبري ، نفس المصدر ، ج٦ ، ص٣٦٢ - ٣٦٤ .

(١٢) يورد الطبري وابن الاثير ما حصل في الاقاليم من اعمال شغب ، ففي اعمال الموصل حدثت الفتنة سنة ٢٥٢هـ تاريخ الرسل والملوك ، ج٩ ، ص٣٨٢ ، ابن الاثير ، نفس المصدر السابق ، ج٧ ، ص١٨٢ ويذكر الطبري ضعف الخليفة المعتز امام سطوة القائد التركي صالح بن وصيف باخلاء سبيل الكاتب احمد بن اسرائيل لأنه قد رباه وهو صغير ورفض ذلك الالتماس من قبل صالح بن وصيف وكيفية القاء القبض عليه مع احمد بن اسرائيل والحسن بن مخلد وابا نوح عيسى بن ابراهيم واتهامهم بالسرقة والخيانة وتعذيبهم والتشهير بهم واخذ اموالهم . تاريخ الرسل ، ج٩ ، ص٣٨٧ .

(١٣) يقع المؤرخون الأوائل في تناقض ظاهر حول تاريخ مقتل المعتز فمنهم من يقول بأنه قد قتل قبل خلافة المهتدي ومنهم من يؤكد مقتله بعد مجيء المهتدي للخلافة ، غير ان المسعودي واليعقوبي والطبري يؤكدون انه قد مات بعد تسنم المهتدي لدست الحكم . ولتفاصيل البيعة كذلك ينظر : الطبري ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٣٩١ . اليعقوبي ، كتاب التاريخ ، م٢ ، ص٥٠٥ المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ت . محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص١٨٣ كذلك ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص١٩٨ . ويورد الطبري نص الكتاب الذي شهد به المعتز على نفسه بالعجز وبخلع نفسه . نفس المصدر السابق ج٩ ، ص٣٩١ وما بعد .

(١٤) يتحدث ابن الأثير بتفاصيل مفيدة عن ثورة أهل بغداد . ينظر الكامل في التاريخ ، ج٧ ص١٩٨-١٩٩

(١٥) يذكر الطبري وابن الاثير ان المتوكل هو الذي اطلق عليها هذا اللقب لحسنها وجمالها وذلك من باب التضاد .

(١٦) الطبري ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٣٩٤ وما بعد . ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج٩ ص١٩٩ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ، ص٢٥٠ .

(١٧) ينفرد ابن كثير بخبر مفاده ان ام المعتز كانت مختبئة عند القائد صالح بن وصيف عدو ابنها ثم انها تزوجته وتمكن بذلك من اخذ مالها وهذا هو سبب دعوتها عليه بتلك الألفاظ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ ، مكتبة المعارف بيروت ، ١٩٧٧ ، ص١٧-١٨.

(١٨) الطبري ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٣٩٦ . ابن الأثير ، نفس المصدر السابق ، ج٧ ص٢٠١ .

ويذكر المسعودي في المروج ج٤ . ص١٨٧ ان احمد ابن اسرائيل وابا نوح قد ضربا بامر المهتدي في باب العامة بسامراء كعقاب لتجاوزاتهما وقد ماتا نتيجة الضرب .

(١٩) الطبري ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٣٩٩ وما بعد .

(٢٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص١٨٨ .

(٢١) المسعودي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٥ .

(٢٢) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٢٠٥ .

(٢٣) نفسه ، ص٢٢٦-٢٢٧ . كذلك الطبري ، نفس المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٥٢ والمفيد قوله أن رغم اصرار الخليفة بضرورة التصدي لمساور الشاري فأن القادة الاتراك لم ينفذوا اوامره .

(٢٤) ينظر : د . فيصل السامر : ثورة الزنج .
د . فاروق عمر فوزي ، المرجع السابق ، الفصل الخامس بالحركات والانتفاضات
احمد علي : ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد
د . عبدالعزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة .

(٢٥) حول تفاصيل هذه الحركة ينظر : المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج٦ ، باريس ، ١٩١٦ ، ص١٢٤
كذلك ينظر ابو الفداء ، المختصر ، ج١ ، المطبعة الحسنية ، مصر بلا تاريخ ، ص٤٦
المسعودي ، المصدر السابق ج٤ ، ص١٩٤–١٩٥ وخير مصدر تاريخي هو الطبري ، راجع تاريخ الرسل والملوك ، ج١ ، ص

(٢٦) المسعودي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٥ ، كذلك السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ت محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٢ ، ص٣٦٢

(٢٧) الطبري : المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٠٨

(٢٨) نفسه ، ص٤٠٩

(٢٩) نفسه

(٣٠) نفسه ، ص٤٣٩ . ابن اثير ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٢١٨ وما بعد .

(٣١) الطبري ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٣٩ . ابن الأثير ، المصدر السابق ج ٧ ص٢١٩ .

(٣٢) الطبري ، نفسه ، ص٤٤٢ . ابن الاثير ، نفسه ، ص٢٢٠

(٣٣) الطبري ، نفسه ، ص٤٤٢–٤٤٣ . ابن الاثير ، نفسه ، ص٢٢٠ .

(٣٤) الطبري ، ايضاً ، ص٤٤٣

(٣٥) الطبري ، نفسه ، ص٤٤٣ . ابن الاثير ، نفسه ، ص٢٢١ .

(٣٦) الطبري ، ايضاً ، ص٤٤٤–٤٤٥ . ابن الاثير ، نفسه ، ص٢٢١ .

(٣٧) الطبري ، نفسه ، ص٤٤٦ . ابن الاثير ، نفسه ، ص٢٢٢ .

(٣٨) الطبري ، نفسه ، ص٤٥٠–٤٥١

(٣٩) ابن عماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج١ ، بيروت ، ص١٣٢ .

(٤٠) يذكر المسعودي في مروج الذهب ج٤ ، ص١٨٤ ان صالح بن وصيف قد سبق له وان اتهم الخليفة المهتدي بانه يتظاهر بخلاف مايبطن من موقف تجاهه . وان المهتدي قد كاتب سراً موسى بن بغا للقدوم الى سامراء . من هذا يتضح لنا موقف الخليفة المتحرج امام مصالح هؤلاء القادة العسكريين .

(٤١) الطبري ، نفس المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٤٠ وكذلك ص٤٥٢ .

(٤١) الطبري ، نفس المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٤٠ ، وكذلك ص٤٥٢ .

(٤٢) يذكر المسعودي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٥ ان صالح بن وصيف قد دافع عن نفسه الى أن قتل ولم يستسلم كما جاء في رواية الطبري ، ص٤٥٢ .

(٤٣) الطبري ، المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٢٥٨

(٤٤) نفسه ، ص٢٥٨

(٤٥) نفسه

(٤٦) نفسه ، المسعودي ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٨٧ .

(٤٧) المسعودي ، نفسه ، ص١٨٧

(٤٨) الطبري ، المصدر السابق ، ص٤٥٨

(٤٩) المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج٦ ، ص١٢٤ المسعودي ، المصدر السابق ، ج٤ ص١٨٢

(٥٠) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج١ ، ص١٢٤ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٣٦٢

(٥١) المسعودي : المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٩٠ . اليعقوبي ، كتاب التاريخ ، م٢ ص٥٠٥